إصدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي - الجزائر

بحوث الملتقى الدولي الثامن

جهود علماء الغرب الإسلامي في تنزيل النص القرآني على الواقع

بتاريخ: 21و22 ربيع الثاني 1444هـ / الموافق لـ 15 و16 نوفمبر 2022

إسقاط النص القرآني على شؤون السياسة والحكم عند ابن خلدون

ط. د/ حفناوي عتوسي، إشراف: د/ عبد الحميد فرج
كلية الحقوق والعلوم السياسية - جامعة الوادي
attoussi.af.39@gmail.com
hamid.fj.39.dz@gmail.com

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

مقدمة

إن اهتمامنا الرئيسي في هذا البحث سينصب على توضيح المنطلق الإسلامي لفكر ابن خلدون ونظرياته في السياسة. حيث يبقى ابن خلدون المفكر الإسلامي الذي لم تخرج أفكاره عن نطاق المعتقدات الدينية للإسلام أو تتناقض معها

إن فكر ابن خلدون إسلامي المبتدأ والمنتهى، ومقدمته الشهيرة إسلامية الأصول والمنطلق، قرآنية المبنى والتدليل. ونستشهد ببعض الآيات القرآنية، مشيرين إلى بعض فصول مقدمته التي ورد فيها كل منها، لتعزيز وجهة نظريا فيما نذهب إليه من أن منطلق ابن خلدون في السياسة هو منطلق إسلامي خالص، غير متأثر فيه بأي مؤثرات أجنبية أرسطو طاليسية كانت أو أفلاطونية، لذلك تم طرح الإشكالية الموالية : كيف يمكن أن يتم توظيف النص القرآني عند ابن خلدون على شؤون السياسة والحكم والاقتصاد ؟ وللإجابة على هذه الإشكالية تم طرح التساؤلات الموالية :

- من هو ابن خلدون؟
- كيف استدل ابن خلدون بالنصوص القرآنية؟
- وهل وفق ابن خلدون في توظيف النصوص القرآنية على شؤون الدولة والحكم والسياسة؟

أولا: نبذة تاريخية عن أبن خلدون

«ابن خلدون» حياة ممتدة في خدمة العلم والسياسة :

اشتهر مؤلف المقدمة بين الناس وفي بيئات العلم والأدب باسم «ابن خلدون» ولكنه اسمه الفعلي كان «عبد الرحمن»، واسم والده «محمد»، وأما تلقيبه بلقب «ابن خلدون» فكان نسبة إلى اسم أحد أجداده القدماء، وخالد المعروف بخلدون[1] وهو الجد الذي دخل

1- اسم خلدون هو صيغة تفخيم من اسم خالد، لأن الواو والنون في آخر اللفظ تنزل على التفخيم أو الكبير وإظهار علو مكانة الشخص، وهي مأخوذة من المقطع الإسباني an أوun في آخر الكلمة. وهناك =

الأندلس مع جند اليمانية، قبل ولادة مؤلف المقدمة بمدة لا تقل عن أربعة قرون.

هكذا ينتمي «ابن خلدون» إلى أسرة عربية عريقة من يمن حضرموت، وكان جده الأعلى«خالد» المعروف بخلدون من بين القادة العسكريين الذين شاركوا في فتح الأندلس تحت قيادة «طارق بن زياد» في سنة 92 هـ (811م). ومنذ هذا التاريخ استقرت أسرته في مدينة أشبيلية وأصبحت من أكثر الأسر العربية نفوذا وثروة ومكانة اجتماعية، حتى إنها خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كانت تتقاسم حكم هذه المدينة ومنطقتها مع أسرة يمنية أخرى هي «بنو حجاج». وقد عرف من بين أفراد «بني خلدون» عدد كبير من رجالات السياسة والمشاركة في النشاط الاجتماعي والعلمي على طول القرون التالية حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، حينما ألحت القوى المسيحية الإسبانية على الأندلس بالحملات العسكرية، فسقطت في أيديهم المدن الكبرى مثل قرطبة وغيرها. وحينئذ رأى أعلام أسرة «بني خلدون» أن يهاجروا من وطنهم إلى المغرب، فسكنوا مدينة سبته لفترة قصيرة، ومنها انتقلوا إلى تونس التي كانت تحكمها دولة الحفصيين[2]. وكان من أوائل هؤلاء المهاجرين «محمد» جد» «ابن خلدون» المباشر، الذي تولى بعض المناصب الكبرى لسلطان تونس. وأما أبوه «محمد» فقد آثر الاشتغال بالعلم بعيدا عن السياسة.

ولد «عبد الرحمن بن خلدون» في سنة 832 هـ (1332م)، ووجهه أبوه لطلب العلم منذ صباه المبكر، فحضر مجالس علماء تونس الذين كان منهم كثيرون من مهاجري الأندلس، حيث تعلم وحفظ القرآن وهو يافع على يد الشيخ «أبى عبد الله محمد بن سعد»، ودرس العربية على يد أبيه وعلى يد عدد آخر من العلماء والمشايخ منهم «عبد الله محمد بن العربي الحصايرى»، و«عبد الله محمد بن الشواش الزرزالي»، وقرأ الحديث على الشيخ «شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر»، وأخذ الفقه عن «أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجياني» وغيره، ولازم آخرين أخذ عنهم العلوم العقلية مثل «أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي» الذي أخذ عنه المنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية، حيث لازمه «إبن خلدون»، لمدة ثلاث سنوات بعد وفاة والديه في 849 هـ في الطاعون الجارف الذي عم بلاد العالم آنذاك[3]. كما واصل «عبد الرحمن بن خلدون» حضوره مجالس العلم على يد نخبة من كبار الأساتذة الذين رافقوا السلطان المغربي «أبا الحسن المريني» في غزوته لتونس في

=أسماء أندلسية تأثرت بهذه الصيغة مثل زيدون وحفصون وعبدون...إلخ، راجع : أحمد مختار العبادي، «ثلاثة رموز عالمية مغربية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)»، ورقة مقدمة إلى ندوة عالمية ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، منتدى الإصلاح العربي، 5-7 ديسمبر 2006.

2- الحفصيون من سلالة خلافة الموحدين في مراكش.

3- لمزيد من التفاصيل عن حياة ابن خلدون يمكن الرجوع إلى عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون، المجلس الأعلى للثقافة: 2006، ص9.

سنة 847 هـ وحينما عاد الكثيرون من هؤلاء إلى المغرب قرر «عبد الرحمن» أن يلحق بهم هناك لكي يستكمل تكوينه العلمي معهم. وقد بدأ «ابن خلدون» حياته العملية مبكرا، فقد عمل وهو في تونس مع «محمد بن تافراكين» حاكمها في عام 852 هـ ككاتب للعلامة أو المسئول عن وضع توقيع وختم السلطان على المراسيم التي يصدرها، وهو في نحو العشرين من عمره، وهكذا جمع بين طلب العلم والاشتغال بالسياسة. وفي فاس استدعاء السلطان المريني «أبو عنان فارس» لكي يتولى الكتابة له، فعمل في خدمته مدة منذ آخر سنة 856 هـ، حيث ضمه السلطان إلى هيئة علمائه التي تبحث في المسائل الدينية والنحوية بحضرة السلطان، ثم عينه بعد ذلك أمينا لشئونه (سكرتيرا)، واستغل «ابن خلدون» وجوده في فاس في النظر والقراءة والتعلم من كبار الشيوخ والعلماء من أهل المغرب والأندلس الوافدين على فاس بغرض السفارة أو الزيارة.

تناول ابن خلدون في الجزء الأول من كتابه المشهور: كتاب العبر، وهو الجزء المعروف بمقدمة ابن خلدون أو«بالمقدمة» فحسب، ارتقاء الحضارات وانحطاطها وأصل الأسر الحاكمة أو أساس الحكم، كما عرف ابن خلدون المنهج التاريخي ليفيد كأساس لتاريخ تفسيري وتعليلي، وهو في هذا سابق لكلا من (مكيافللي) في كتابة: الأمي و (مونتسكيو) في كتابه: (روح القوانين) الذي تعرض فيه لبحث أسباب نهضة الرومان وقوتهم وتدهورهم وانحطاطهم.

وقد حاول بعض الباحثين من أبناء الغرب والشرق على السواء، تحديث فكر ابن خلدون ونظرياته فمنهم من جعله مفسرا ماديا للتاريخ، ورائدا للاتجاه المادي في علم الاجتماع، ومنهم من جعله مفكرا علمانيا، لا يقيم وزنا للبعد الديني في نظريته عن مجرى التاريخ الإنساني، كما حاول البعض الآخر من هؤلاء الباحثين لوى عنق بعض الآراء والمفاهيم الخلدونية لدرجة أنه جعل العصبية مرادفة للقومية.

ومن هؤلاء الباحثين من حاول إنكار المنطلق الإسلامي لفكر ابن خلدون ونظرياته، وإلغاء البعد الديني في مقدمته، وانتزاعه من ثقافته الإسلامية انتزاعا.

ويشير (ناتانيلشميت) N.Schmidt الأستاذ بجامعة كورنل بأمريكا أن ابن خلدون «إذا كان يذكر خلال بحثه كثيرا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن»[4].

ليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله. نحب أن نوضح أصالة منطلق ابن خلدون الإسلامي، وأن الرؤية الدينية عنده هي مسألة أساسية في منهجه، يضاف إلى ذلك حرص ابن خلدون على تدعيم كل أساسية في منهجه، يضاف إلى ذلك حرص ابن خلدون على

4- Ibn Kaldoun: Historian, Sociologist, and Philosop her

تدعيم كل نظرياته خاصة ما يتعلق منها بالسياسة والاقتصاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: بعض الإسقاطات القرآنية على شؤون السياسة والحكم والاقتصاد عند ابن خلدون

يجب التوضيح بأن أصالة منطلق ابن خلدون الإسلامي، وأن الرؤية الدينية عنده هي مسألة أساسية في منهجه، يضاف إلى ذلك حرصه على تدعيم كل أساسية في كل نظرياته ومنهجه، خاصة ما يتعلق منها بالسياسة والاقتصاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنذكر منها:

- فيما يتعلق بالمجتمعات وتكوينها الإنساني استدل ابن خلدون بقول الله تعالى: بعد بسم الله الرحمان الرحيم .

﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[5]، هنا بصدد الحديث عن ضرورة الاجتماع الإنساني.

- وفيما يتعلق بالمنافسة والتسابق بتغليب القبلية والعشيرة للوصول الى السلطة، فنجده استدل بقوله سبحانه وتعالى بـ:

﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾[6] وهنا بصدد الحديث على أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك، فالرئاسة لا تكون إلا بالغلب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى العصائب، ليقع الغلب منها وتكون الرئاسة لأهلها، فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب، لما تمت لهم الرئاسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه لما قلناه من سرّ الغلب.

- وفيما يتعلق بالمواصفات التي ينبغي أن تتوفر في الحاكم، نجد ابن خلدون استدل بقول الله سبحانه وتعالى بـ : - وهنا أيضا وفي نفس السياق حول الحاكم استدل بقوله عز وجل :

﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾[7] والمعنى هنا أن بن خلدون أراد القول بأن هذه الأرض لو كان فيها إله غير الله لما رحمت البشرية بعضا البعض ولامتلأت الأرض فسادا وخرابا.

5- طه: 50.

6- البقرة: 251.

7- الأنبياء: 22.

- وفيما يتعلق بانتساب العصبية والعشائرية والقبلية لأهل القرى والأرياف دون المدن والحضر ،فقد استدل بقوله تعالى :

﴿**لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون**﴾[8] هنا بصدد الحديث على أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل هم أهل العصبية. والمعنى أنه لا يتوهم العدوان على أحد مع تكون العصبة له، وأما المتفردون في أنسابهم فقل أن تصيب أحد منهم نعرة على صاحبه، قلما أظلم الجو بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لما يلتهمهم من الأمم سواهم.

- أما فيما يتعلق بإدارة شؤون الحكم والدولة، استدل ابن خلدون بقوله عز وجل :

﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم**﴾[9]أي هنا يريد الحديث على أن الدول العامة والحصول على الملك أصله الدين ولا يكون غير ذلك، وأن الإنسان محدود الإدراك والتفكير وحتى القدرة اللامتناهية، فهي من سمات الواحد القهار الذي أراد شيء فإنما يقول له كن فيكون وله القدرة على تأليف القلوب مهما تفرقت .

- وفيما يتعلق بالعمر الجيلي للدولة، فنجد ابن خلدون وظف الآية الكريمة الآتية:

﴿**حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة**﴾[10]أي أنه هنا يريد القول بأن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص تماما، ويظهر من مساق الآية الكريمة ومفهومها أن الحكمة من التيه المقصودة من جراء الانغماس في الترف والنعيم وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل جديد عزيز، لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة، فنشأت بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب، ويظهر من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر.

- وفيما يتعلق بتطور الدول والأوطان وانقضاءها فقد استدل بقوله تعالى :

﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا**﴾[11]، هنا بصدد الحديث على أن الحضارة غاية العمران، ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده. فإذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات والمعاصي وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منه جملة، ولا تزال في انتقاص

8- يوسف: 63.

9- الأنفال: 63.

10- الأحقاف: 15.

11- الإسراء: 16.

الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم في سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك وجعل في أيديهم الخير.

﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه**﴾[12]، بصدد الحديث عن حقيقة الرزق والكسب وأنه قيمة الأعمال البشرية، وإنما على الإنسان السعي لكسب القوت والرزق، فالله جعل لكل شيء سببا.

كما يتأكد البعد الإسلامي عند ابن خلدون من خلال اختتامه كل فصل من فصول مقدمته بآية قرآنية أو أكثر بلغ عددها أربعا وعشرين آية مضافا إليها بعض الأحاديث النبوية الشريفة والدعاء إلى الله بالسداد، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر.

- فصل في حقيقة الملك، يختمه بالآية الكريمة ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾[13].

- فصل في أن الملك والدولة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية، يختمه بقوله تعالى: ﴿**وهو بكل شيء عليم**﴾[14].

- فصل في أن الرئاسة على أهل العصبية، يختمه بقوله تعالى: ﴿**عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير**﴾[15].

- فصل في أن البيت والشرف لا يكون إلا بالأصالة، يختتمه بالآية الكريمة: ﴿**والله بكل شيء عليم**﴾[16].

- فصل في الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب، يختمه بقوله تعالى: ﴿**الله غني عن العالمين**﴾[17].

- فصل في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط، يزيله بقوله تعالى: ﴿**وهو الواحد القهار**﴾[18]، والمعنى هو أنه كلما كانت الأمة أكثر وحشية كان ملكها أوسع، وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد واستبعادهم على الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم

- فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها، يختمه بقوله تعالى: ﴿**وقل رب زدني علما**﴾[19]﴿**وأنت أرحم الراحمين**﴾[20].

12- الجاثية: 13.
13- الأنعام: 61.
14- الأنعام: 101.
15- الأنعام: 73.
16- الحجرات: 16.
17- آل عمران: 97.
18- الرعد: 16.
19- طه: 114.

- فصل في أحوال الموالي والمصطنعين والمظللين في الدول يختمه بقوله تعالى: ﴿**والله ولي المؤمنين**﴾[21]، ﴿**وهو على كل شيء قدير**﴾[22].

- فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، يختمه بهذا المعنى القرآني﴿**الله يخلق ما يشاء**﴾ والأصل القرآني هو ﴿**يخلق الله ما يشاء**﴾[23]. والمعنى هنا أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه من الأحوال حتى صار خلقا وملكا وعادة تنزّل منزلة الطبيعة والجبلة، اعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا صحيحا.

- فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين، يختمه بقوله تعالى: ﴿**والله يؤتي ملكه من يشاء**﴾[24]. والمعنى هو أن سبب التوحش الذي فيهم وأصعب الأمم انقيادا لبعضهم البعض نظر للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواءهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خُلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم الدين المُذهب للغلظة والأنفة والوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذ بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق ثم اجتماعهم حصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبول للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق.

- فصل فيما يتعلق بأن من عوائق الحصول على الملك انغماس القبيلة في الترف والنعيم، يختمه بقوله تعالى: ﴿**والله يؤتي ملكه من يشاء**﴾[25].والسبب في ذلك هو أن القبيلة إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب، استولت على النعمة بمقداره، فعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء، فضلا عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتهمتهم الأمم .

- فصل في الجباية والضرائب وسبب قلتها وكثرتها، يختمه بالآية الكريمة: ﴿**بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**﴾[26]. ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيلة من جراء المغارم والضرائب، لأن هذه الأخيرة ضيما ومذلة لا تحتمله النفوس الأبية إلا إذا استهونته عن

20- الأنبياء: 83.
21- آل عمران: 68.
22- الشورى: 09.
23- النور: 45.
24- البقرة: 247.
25- البقرة: 247.
26- ياسين: 83.

القتل والتلف، وأن عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية، ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد والذل، والمذلة عائقة كما قدمناها، ومن قوله صلى الله عليه وسلم في شأن الحارث لما رأى سكة المحراث في بعض دور الأنصار **"ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل"**، فهو دليل صريح على أن المغرم والضرائب موجب للذلة.

- ونجد أيضا له فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران، يستشهد فيه بقوله تعالى: ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[27].

- كما نجد لابن خلدون فصل أيضا في أن أي أصناف الناس له أن يحترف بالتجارة، يختمه بالآية الكريمة: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾[28]. والمعنى هنا هو أن صاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها فإذا بلغ رتبة السؤددة والإتباع ووجد السبيل إلى للتغلب القهر والإتباع لا يتركه لأنه مطلوب للنفس ولا يتم الاقتدار عليها إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا، فالتغلب الملكي غاية العصبية، كما رأيت، ثم أن القبيل الواحد وأن كانت فيه بيوتات متعددة وعصبيات متفرقة، فلابد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى.

- كما له فصل في نقل التجّار للسلع ويختمها بهذا المعنى القرآني: ﴿**الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ والأصل القرآني هو: ﴿**إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾[29].

- وفصل أيضا في أن خُلق التجارة نازلة عن خُلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة، ويختمه بالآية الكريمة: ﴿**والله خلقكم وما تعلمون**﴾[30].

هذا بعض من الإسقاطات للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة للمفكر الإسلامي وعالم الاجتماع ابن خلدون على شؤون السياسة والحكم والاقتصاد والحياة العامة للمجتمع سواء كان في البدو أو الحضر، وهي بمثابة ردود على كل من أطلق على ابن خلدون على أنه مفكر علماني وبعيدا عن الدين الإسلامي، وقد حاول بعض الباحثين من أبناء الغرب والشرق على السواء، تحديث فكر ابن خلدون ونظرياته فمنهم من جعله مفسرا ماديا للتاريخ، ورائدا للاتجاه المادي في علم الاجتماع، لا يقيم وزنا للبعد الديني في نظريته عن مجرى التاريخ الإنساني، كما حاول البعض الآخر من هؤلاء الباحثين لو بعمق بعض

27- فصلت: 46.

28- البقرة: 251.

29- الذاريات: 58.

30- الصافات: 16.

الآراء والمفاهيم الخلدونية لدرجة أنه جعل العصبية مرادفة للقومية، حيث أثبت ابن خلدون أن الدين هو أصل نشأة الدولة والحضارة وتطورهما، لأن هي جمع الناس تحت لواء عقائدي ويؤلف بينهم تحت كنف الإله والأنبياء المرسلين.

ثالثا: مفهوم الدولة عند ابن خلدون:

حاجة الإنسان إلى الاجتماع والحكم:

تلعب الحاجات الإنسانية دورا بارزا في نشأة العمران وتطوره، وبقاء الإنسان والجماعات البشرية، فيما يرى ذلك ابن خلدون، مرهون بأمرين أساسيين هما: القوت أو الغذاء الذي يضمن الحياة. والدفاع الذي يقي الإنسان من أخطار الطبيعة وتحدياتها. وإن كلا من الأمرين يقتضي الاجتماع البشري بين المرء وبني جنسه، والتعاون بين الناس من أجل الحفاظ على استمرار بقاء هذا التجمع الإنساني.

ويوضح ابن خلدون ما سبق بإشارته إلى قصور قدرة الواحد من البشر عن تحصيل حاجته من الغذاء، وضرورة الاجتماع الإنساني من أجل تحصيل الغذاء الذي به قوام وجوده فيقول:

إن الله سبحانه خلق الإنسان، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله. إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء.

إن طبيعة الإنسان الذي فطر على الخير والشر والتعاون والعدوان، تحتم، إذن، وجود هذا الوازع لاستقامة أمور الحياة المدنية وعدم تعرض الإنسان للفناء أو الهلاك.

لقد أجمع فقهاء الإسلام على ضرورة قيام الحكم في الإسلام، وأنه فرض على الأمة كلها وهي مسئولة عن أدائه، وأن أمر الدين، لا يستقيم إلا باستقامة أمور الدنيا: أن الدين يتطلب إقامة الشعائر، وتنفيذ الأحكام، وإقامة العدل، وحماية الأموال وإقامة الحدود، وتحصين البلاد والدفاع عنه ضد الأعداء وجباية الأموال المستحقة على القادرين، وتوزيع الصدقات على المحتاجين، وإدارة شؤون الدولة بمهارة وبراعة، وكل هذا يتطلب وجود «السلطان الحاكم الوازع».

وقد درس ابن خلدون ظاهرة الخلافة الإسلامية لما لها من أهمية بالغة في حياة المجتمع الإسلامي. ويجدر بنا هنا[31] أن نعرض رأي ابن خلدون لظاهرة الخلافة من الناحية السياسية فحسب، فقد نشأت هذه الظاهرة بعد موت الرسول مباشرة وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، إذ

31- راجع: د. مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة، الطبعة الثانية 1378 هـ- 1958 م ص ص130.

اضطرتهم طبيعة الاجتماع وظروف الدولة، والمحافظة على الدين الجديد أن يختاروا خليفة للرسول، رئيسا أعلى يتولى أمورهم إذا أن هذا المنصب هو نيابة عن صاحب الشريعة، ومهمته حفظ الدين وسياسة الدنيا. وهو يختلف في طبيعته عن وظيفة الملك أو الحاكم السياسي، ووظيفته أعم وأشمل لأنه ينظر في تنظيم شؤون الناس الدنيوية والأخروية، وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة. وستتضح لنا هذه التفرقة عندما نتحدث عن أنواع الحكم عند ابن خلدون.

«إن الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين إما من نبوة، أو دعوة حق، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه...»[32]. ويدعم ابن خلدون رأيه بقوله تعالى:﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم**﴾[33].

إن الدين، عند ابن خلدون، هو أصل نشأة الدولة والحضارة وتطورهما، لأنه يجمع الناس تحت لواء عقائده ويؤلف بينهم تحت كنف الإله والأنبياء المرسلين.

ومعنى هذا أن نصب الإمام، وكما يرى ذلك ابن خلدون، وجماعة أهل السنة التي ينتمي إليها، واجب شرعا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من مات ولم يعرف إمام زمانه، فقد مات ميتة جاهلية» ولأن المسلمين قد جعلوا أهم المهمات بعد وفاة النبي عليه السلام نصب الإمام وفي هذا يقول ابن خلدون:

وقد لعب الدين الإسلامي دورا مؤثرا في أحداث التاريخ الإسلامي، وتأسست الدولة الإسلامية في عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين، وتوطدت دعائمها انطلاقا من الدين الحنيف، ومن حقائق التاريخ الثابتة، ذلك الارتباط الوثيق بين الدين والدولة في الإسلام خاصة في العصور الأولى.

إن ابن خلدون يقرر إذن، وبكامل الوضوح إن الدين من أسس قيام الدولة، وشرط ضروري لها.

دستور الحكام:

بعد أن حدد ابن خلدون الخلافة نظاما أمثل للحكم، أتى بعد ذلك بكتاب طاهر بن الحسين مظهرا إعجابه به وتقديره العميق له من خلال تعقيبه عليه. وقد قدم طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله من النصائح والوصايا في كتابه ما يمكن أن نسميه بدستور مكتوب للحكام في جميع شؤون الحكم من إدارة وقضاء ومالية ودفاع وصحة وعمارة وأوضح فيه ما يجب أن يتحلى به الحاكم في معاملاته مع مرءوسيه بخاصة، وجمهرة الناس

32- ابن خلدون: المقدمة 636/2.
33- الأنفال: 63.

بعامة. وقد احتل كتاب طاهر بن الحسين في تفكير ابن خلدون مكانا كبيرا نظرا لأصوله الإسلامية ونزعته الأخلاقية، وعناصره الشرعية واتجاهه التربوي في الاجتماع والسياسة.

وتلك مقتطفات من كتاب طاهر بن الحسين:

«عليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته، ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه، واحفظ رعيتك في الليل والنهار.

«الزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك من الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه.

«اعتصم في أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى، والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسننه، وبإقامة دينه وكتابه، واجتذب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله عز وجل.

ولا تملين عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد. وآثر الفقه، وأهله والدين وحملته، وكتاب الله عز وجل والعاملين به. فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به الله تعالى فإنه الدليل على الخير كله، والقائد إليه والآمر به والناهي عن المعاصي والموبقات كلها.

وآل من صافاك من أوليائك بالأفضال عليهم وحسن العطية لهم واجتذب الشح واعلم أنه أول ما عصى الإنسان به ربه، وأن العاصي بمنزلة الخزي، وهو قول الله عز وجل:﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[34].

ويمكن لنا أن نجعل أهم أسس نظام الحكم التي اختارها ابن خلدون وأعجب بها أثناء عرضه لكتاب طاهر الذي أوردنا فقرات مجزئة منه كنموذج لمنهج الحكم في المجتمع البشري الذي أبدع نظريته.

الإيمان بالله تعالى وبوحدانيته، والتوكل عليه والتسليم بقضائه، والاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام في أقواله وأحواله، والحرص على أداء الفرائض والسنن، وشكر لله على نعمه.

الإيمان بهيمنة الله وسيطرته على أمور العالم ومصائر البشر، وإن الملك له يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

وتنحصر أنواع الحكم، عنده في ثلاثة:

1- الملك الطبيعي العلماني الاستبدادي، وهو «حمل الكافة على مقتضى الغرض

34- التغابن: 16.

والشهوة».

2- الملك السياسي العقلي الوضعي، وهو « حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ».

3- الخلافة السماوية الشرعية، وهي «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها.. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[35].

إن الملك الطبيعي الفردي هو ثمرة العواطف والغرائز الإنسانية من ميول وأهواء كحب الذات، والرغبة في الاستعلاء والاستبداد والسعي إلى تحقيق المطامع الفردية الأنانية. وتشترك في هذا النوع من الحكم جميع الأمم التي يحتكر الحكم فيها طاغ مستبد، لا يعتمد في حكمه على سياسة عقلية أو سياسة شرعية، ويهدف إلى تحقيق المصالح الأنانية الضيقة له. وهذا النوع الاستبدادي من الحكم مذموم عند ابن خلدون. ويرى ابن خلدون أن مآل هذا الحكم الانهيار، لأن الناس لا يوافقون على منح ولائهم لحاكم استبدادي ظالم، فيعلنون العصيان فتنشب القلاقل وتسفك الدماء مما يؤذن بنهاية حكمه.

أما النوع الثاني من الحكم فهو الحكم أو الملك السياسي الوضعي الذي عرفه الفرس، الذين كانوا يستندون فيه إلى قوانين وضعية زمنية خلافا لنظام الملك الطبيعي الضار السابق الإشارة إليه.

إن الملك السياسي يعتمد، إذن على قوانين وضعية، يضعها فلاسفة الدولة وعظماؤها بدون أن ينظر فيها إلى الشرع، وهدفهم من هذه القوانين جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار. وهذا النوع من الحكم مذموم أيضا عند ابن خلدون، وإن كان يحلو له في بعض الأحيان مدحه، حيث يخضع الناس فيه لقوانين عقلية بدلا من الخضوع للحكم الاستبدادي الفردي أو الأوتوقراطي أو غير الدستور. ثم إن هذه القوانين الوضعية العقلية الزمنية التي يعتمد عليها هذا الحكم تكفل للدولة الهدوء والاستقرار والثبات اللازمة لضمان بقاء العمران.

وعلى ذلك فلا بد من نظام ثالث للحكم وهو الخلافة التي تتطابق فيها السياسة والشريعة، فتكون السياسة شرعية، تعتبر أحكام الشريعة فيها السلطة العليا ذات السيادة. والخلافة، بهذا، هي نظام يوحي به الله بواسطة الأنبياء ويراعي فيه جلب المنافع ودفع المضار ومصالح الناس الأخروية من جلب المنافع ودفع المضار أيضا. وفي هذا يقول ابن خلدون في

35- ابن خلدون: المقدمة 2 /688.

تعريفه نظام الخلافة بأنه: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجع إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»[36].

ومما لا شك فيه أن النظرية السياسية الاقتصادية المثالية تستند بالأصالة إلى دعامات أخلاقية، لذلك يحرص أصحابها دائما على تعزيز معاني العدالة المثلى والفضيلة العليا والخير الأسمى، وليس من المستطاع إلى حد بعيد أن نعزل الفكرة السياسية (والاقتصادية) عن المعنى الحقيقي للأخلاق، ولذلك فحتى عند أولئك الذين توهموا أنهم فصلوا بين الأخلاق والسياسة (والاقتصاد)، نلاحظ أن بعض العناصر الأخلاقية قائمة في صميم نظرياتهم. ولعل السبب العميق في هذا هو أن المجتمع الإنساني، مهما تكن طبيعته، وأيا كانت مقوماته، مجتمع ينهض على بعض القيم الأساسية المرتبطة بالخير والفضيلة والمساواة والعدالة والحق والواجب. فإغفال القيم الأخلاقية في نظرية من النظريات هو إغفال متعمد من صاحبها واتجاه منه إلى الإشادة بالغرائز الأنانية التدميرية الكائنة في الإنسان.[37]

خاتمة

إن الحياة المحتضرة في نظر ابن خلدون، توجب اللجوء إلى قوانين سياسية ملزمة يقلها الناس عن رضا واقتناع، يكون مصدرها شرع الإسلام المستمد من أصول أربعة هي القرآن والسنّة والإجماع والقياس. مثل تلك القوانين يمكن أن تحقق الصالح العام للمجتمع، وترشد الناس إلى ما هو أقوم في حياتهم الدنيوية والأخروية على حد سواء. وحكومة الخلافة، بهذا، تعد خير حكومة لما فيها من حفاظ على مصالح الناس في دنياهم وسلامة مصيرهم في آخرتهم.

ثم إن لأحكام الشريعة وظيفة دنيوية تتمثل في تخلي الناس عن عاداتهم المتخلفة وقبولهم الحكم المستلهم من وحي السماء، فنجد الدين يعمل على القضاء على التنافس والتحاسد بين الناس، وتميز بقدرته على تأليف القلوب وعلى الانقياد للحاكم والإقبال على الله. وكان له دور كبير في جمع العرب على كلمة واحدة، وتمكينهم من الملك.

36- المصدر السابق 2 /688.

37- محمد فتحي الشنيطي: نماذج من الفلسفة السياسية،مكتبة القاهرة الحديثة 1961 .

قائمة المراجع

- ابن خلدون: المقدمة .

- عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون »المجلس الأعلى للثقافة: 2006.

- مصطفى الخشاب: النظريات والمذاهب السياسية، مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة، الطبعة الثانية 1378 هـ- 1958 م.

- محمد فتحي الشنيطي: نماذج من الفلسفة السياسية، مكتبة القاهرة الحديثة 1961.

- أحمد مختار العبادي، «ثلاثة رموز عالمية مغربية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)»، ورقة مقدمة إلى ندوة عالمية ابن خلدون، مكتبة الإسكندرية، منتدى الإصلاح العربي، 5-7 ديسمبر 2006.

- Ibn Kaldoun: Historian, Sociologist, and Philosop her